نظرات استشراقية عند يوهان فك في كتابه العربية

مختار محمد بن عاشور

الجامعة الأسمرية الإسلامية، كلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية، قسم اللغة العربية
m.binashour@asmarya.edu.ly
ORCID 0009-0002-4346-561X

الملخص

منذ قرون مضت لم تكف دراسات المستشرقين للتراث العربي والإسلامي، دراسة اتسم بعضها بالذاتية والأحكام المسبقة، لتقديم صورة معينة عن العرب والإسلام وما يتصل بهما، في حين سعت أخرى للبحث بكل موضوعية، في محاولة لاستجلاء خبايا هذا التراث والاستفادة من علومه، ومهما يكن من حال هذه الدراسات، فإنها لا يمكن بحال أن تصل حد الكمال، والمتأمل لدراسات المستشرقين يرى إطارا عاما يبتعد عنه البعض أو يقترب، لا سيما إذا اتفقنا أن الموضوعية المطلقة لا يمكن أن تحضر في كثير من الأحوال، ولذلك سيحاول هذا البحث النظر في دراسة من دراسات المستشرقين، هي دراسة يوهان فك الرائدة (العربية: دراسة في اللغة واللهجات والأساليب)، وذلك في محاولة لعرضها ومتابعة ما فيها متابعة علمية، تلخصها وتبين بعض المآخذ التي وقعت فيها الدراسة.

ABSTRACT

Orientalist studies of the Arab and Islamic heritage have been going for Centuries. Some of these studies have been subjective with advanced judements. They presented a certain image of the Arabs and Islam. Others sought with objectivity in an attempt to disclose the treaures of this heritage from its sciences. However, these studies, could not in any way reach a point of perfection, and contemplation of orientalist studies can show framed opinions more or less, taking into account that absolute objectivity cannot be realized in many of these studies. This research will attempt to consider one study of the Orientalist Studies. That is the of Johann Fück's (Arabic: A Study in Language, Dialects, and Techniques). My paper is an attempt to review that study and examine its content, summarizing it and showing some of its shortages.

الكلمات المفاتيح: الاستشراق – يوهان فك – كتاب العربية.

توطئة

يعد يوهان فك من أبرز المستشرقين الذين اعتنوا بدراسة اللغة العربية والتراث العربي، وقد تعددت دراساته وتنوعت أبحاثه، وكتابه (العربية: دراسة في اللغة واللهجات والأساليب) دراسة غنية للغة العربية، حاول أن يرصد فيها أهم التطورات والتغيرات التي طرأت على اللغة العربية منذ عصر التدوين وحتى العصر الذي كتب فيه الكتاب، وسيحاول البحث متابعة هذه الدراسة من خلال مراحل عدة، تبدأ بالتعريف بالمؤلف، ثم التعريف بالكتاب، تليها نظرة في مضمون الكتاب حسب فصوله، ثم رصد لمنهجية الدراسة، ثم بعض الآراء الاستشراقية عند يوهان فك، وأخيرا خاتمة تتضمن أبرز النتائج.

أولا: التعريف بالمؤلف.

يوهان فك، باحث ألماني من مواليد**1894**م، درس اللغة العبرية في جامعة فرانكفورت، ثم تخصص في الدراسات الإسلامية، وبعدها درس في ذات الجامعة علوم اللغة العربية، وترأس مكتبة الشرق الأوسط في جامعة هاله، وقد تميّز أسلوبه بالبساطة والتواضع، وكان يرفض تدريس غيره للغة العربية خوفا من التشويه والطمس، أما وفاته فكانت **1974**م، أثناء إلقائه لمحاضرة في جامعة (هاله) وقد تجاوز عمره الثمانين.

من آثاره (العربية لغة وأسلوبا، برلين **1950**)، وقد نقله إلى العربية عبد الحليم النجار، و(العربية فقها وأدبا)، و(العربية: بحوث عن تاريخ لغتها وأسلوبها**1954**)، و(الدراسات العربية في أوروبا)، و(القرآن) و(حديث البخاري) و(الإسلام) و(الصوفية)، و(ترجمة القرآن)، و(الموسيقى العربية).

وأما مقالاته فكثيرة منها: (أصالة النبي محمد "")، و(مكانة المحدثين في الإسلام) و(المعتزلة)، وغيرها.

ثانياً: التعريف بالكتاب.

أفاض المستشرق الألماني "يوهان" فك" (Johann Fuck) في دراسته للعربية، حيث شملت اللهجات والأساليب، منذ عصر التدوين وحتى العصر الذي كتبت فيه، وقد صدرت أول ترجمة عربية للكتاب عن دار الكتاب العربي عام ألف وتسعمائة وواحد وخمسين (1951م)، من ترجمة الدكتور عبدالحليم النجار - رحمه الله - في مائتين وتسعين (290) صفحة، تلاها ترجمة أخرى للدكتور رمضان عبدالتواب، حيث قدم للكتاب وعلّق عليه وفهرس له في ثلاثمائة وإحدى وثلاثين (331) صفحة، وصدر عن المطبعة العربية الحديثة بالقاهرة عام 1980م.

وقد تصدر الكتاب المذكور تعليقات للمستشرق الألماني "أنطون شبيتالر" سبق وأن نشرها في الجزء العاشر من مجلة Bibliotheca Orientalis ما بين مايو ويوليو من عام 1953م ، حيث عد دراسة يوهان فك هذه عملاً رائدا في مجاله، إذ اتسمت بالقراءة الواسعة المستفيضة التي لم تتح لغيره من الدراسين في ذلك الوقت.

وقد ترجم الدكتور رمضان عبدالتواب في هذه الطبعة كل هوامش الكتاب، إذ كان المترجم الأوّل، قد تجاوز عن بعضها في الترجمة، ولخص بعضها الآخر تلخيصا شديدا.

وقد طبع الكتاب طبعة أخرى حملت ترجمة "د. النجار"، وتصدير "أحمد بك أمين"، وتقديم "محمد يوسف موسى" لطبعته الأولى، و"محمد حسن عبدالعزيز" للطبعة الأخرى، وتولى نشره المركز القومي للترجمة بالقاهرة 2014م.

وكما قيل، فإن الدراسة كانت مستفيضة جمع لها صاحبها ما يزيد عن مئتي مرجع، جلها باللغة العربية.

ثالثاً: مضمون الكتاب:

التمهيد:

عالج " فك " في تمهيده فضل القرآن على اللغة، حيث شكل نقطة الانطلاق، فخرجت العربية عن حدودها الإقليمية لتشمل كل البلدان التي وصلها الإسلام تقريبا، حيث أسهم ذلك في إحياء ما يلي من لهجات البلاد المفتوحة، فعلى الرغم من كون العربية مؤثرة ومتأثرة، إلا أنها احتفظت بالمثل الأعلى عن كل اللغات الأخرى، وتطرق "فك" كذلك في تمهيده لظاهرة الإعراب وعدها من أهم أسباب المحافظة على العربية.

الفصل الأول: العلاقات في عهد الدولة العربية (الأموية).

يذهب المؤلف إلى أن الفتوحات الإسلامية كان لها أثر بالغ في توحيد لهجات القبائل، الأمر الذي انعكس جليا على مقام اللغة العربية، وجراء الاختلاط الذي صاحب هذه الفتوحات أصاب اللغة ما أصابها من تفشي اللحن، فنشأ بذلك مبدأ "تنقية اللغة العربية"، فكانت أول لبنة في وضع القواعد النحوية صونا وحفظا للغة العربية، وصارت العربية هي القدوة لكل أطياف تلك الدولة، السادة والعبيد، العرب والعجم، مما دفع الجميع إلى محاولة مجاراة أبناء العربية فيما يرونه جميعا المثل الأعلى وهي العربية، ويستطرد الكاتب في ذكر محاولات غير العرب إجادة العربية، ويذكر في ذات الوقت أمثلة لتشدد العلماء وحرصهم على اللغة وخوفهم من ضياعها.

الفصل الثاني: عربية الدولة ولغة الشعب في أوائل العصر العباسي.

يبدأ المؤلف فصله بالتذكير بسقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية، الأمر الذي أسهم في تولي العنصر الفارسي زمام الأمور في كثير من وظائف الدولة وشؤونها، ويستغرب بقاء العربية في الصدارة رغم هذا الوضع، لكنه يعزو بقاءها وقوتها إلى الدين الإسلامي، وتعلق غير العرب بالقرآن، هذه القوة التي أنتجت سيبويه وكتابه، ويبين "فك

" أن مرجعية التقعيد اللغوي كانت البدو الخلص، في حين أنهم لم يهتموا كثيرا باللهجات.

كما استعرض كذلك حياة العباسيين وما تبعها من تأثير على اللغة جعلهم ينحون منحى الرقة والعذوبة والتهذيب، مستشهدا ببشار وابن المقفع، ليخلص من ذلك إلى اللغويين وأحكامهم على الألفاظ والشعر، باللحن أو الخطأ.

الفصل الثالث: اللغة العربية في عصر هارون الرشيد.

تحدث في هذا الفصل عن الذروة التي بلغتها الدولة بتولي "هارون الرشيد" عرش الخلافة، فيعرض أهم أعمال علماء ذلك الوقت كالأصمعي وأبي عبيدة، والفراء، والكسائي، ويتحدث عن دورهم في متابعة اللغة بين نموذج البدو وغيره، كما تطرق إلى اللحن وشيوعه.

الفصل الرابع: العربية المولدة.

يعرض هذا الفصل استعمالات اللغة في نهايات القرن الثالث الهجري، فيرى "فك" أن مصطلح "العربية المولدة"، هو المعبر عن اللغة المستعملة في ذلك العصر، كما تشهد على ذلك النصوص المسيحية واليهودية، إذ كان أهل هذه الديانات يستخدمون العربية المولدة في أول عهدهم، وذلك لبعدهم عن الثقافة الإسلامية، ويرى "فك" أن الفارق الأهم بين الفصحى والمولدة هو ترك الأخيرة التصرف الإعرابي.

الفصل الخامس: العلاقات اللغوية في عصر المأمون وعقيدة الاعتزال الرسمية.

استعرض في هذا الفصل دراسات الجاحظ، حيث تنبه إلى لغة الأطفال، ولهجات غير العرب عند حديثهم العربية، وكذلك إشارته إلى عيوب اللسان، وتسمية تلك العيوب، وختم فصله بالحديث عن الترك وأثرهم في اللغة.

الفصل السادس: العربية تصير لغة الأدب الفصحى في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي.

يعرض المؤلف في هذا الفصل جهود ابن قتيبة التجديدية التي انصبت حول فساد اللغة بعد ما شهدته من فساد في النصف الثاني من القرن التاسع، فيستعرض كتابه "أدب الكاتب" منهجا وموضوعا وأسلوبا، وفي مجال الشعر حاول أن يعالج شعر البحتري وابن الرومي، وانتهى إلى الحديث عن الدارجة وتفشيها على الألسن.

الفصل السابع: عربية الأدب في القرن الرابع -العاشر الميلادي.

يتحدث في هذا الفصل عن النثر وتطوره وما ألف حوله، فيدور مع قدامة في نقد النثر ليصل إلى ما ذكره قدامة حول الأسلوب، ومراعاة القواعد التي يوضع فيها النثر.

ثم انتقل بعده للهمذاني في كتابه الألفاظ، ليقرر أن الذوق في ذلك الزمان اهتم بالقالب وأعلاه عن المادة، لمجرد الإعجاب برونق اللفظ ولمعانه، ليعود ويؤكد أن الاهتمام باللفظ جرسا ورنينا ووزنا كان دأب أهل ما قبل الإسلام، كما تميز القرآن بشيء من ذلك.

الفصل الثامن: العربية ولهجات البدو في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي.

يتحدث في هذا الفصل عن لهجات البدو، وتحديدا عن تغير النظرة إليها في أوساط العلماء والمتعلمين، فبعد أن كانت محط الأنظار، ومثال الإجادة والإتقان، أصبحت رمزا للتقعر والغرابة، ثم يتابع مع الهمذاني في كتابه "صفة جزيرة العرب" العلاقات اللغوية في جنوب الجزيرة العربية، ويستشهد ويدلل به على التغير الذي حدث، إذ كان ينحصر عمل العالم فيما يأتي من البادية على الجمع والوصف، أما الآن فقد أصبح يدقق ويمحص في استعمالات البادية، بل وينقد ويعارض، ويدلل على ذلك بأمثلة ساقها ابن جني ليؤكد على أن هذه الكلمات قد عارضت أو خالفت.

الفصل التاسع: العربية واللغة المولدة في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي.
يؤكد في هذا الفصل على بقاء العربية اللغة الرسمية حتى بعد تفكك الدولة العباسية، ويدلل بانتقال بعض الشعراء - كالمتنبي - من مكان لآخر، على أن العربية هي ذاتها في كل البلاد تقريبا، ويذهب إلى أن الفصحى قد سيطرت في هذا العصر، وهي لغة التعلم، ولم يعد ما يعارضها من اللهجات، حتى أن لهجة البادية لم تكن موجودة، لأن الفصحى المتعلمة أضحت هي القياس، وينتقل بعدها إلى تناول آراء النقاد حول قصائد ذلك العصر في شروحهم، واهتمام بعضهم باللغة وبعضهم بالغريب وبعضهم بالصور الفنية، حتى ليقرر أن العامة كانت تعلي من شأن الشعر غير المفهوم أو غير الواضح عندها.
الفصل العاشر: ظهور اللغة الدارجة في أشعار القرن الرابع الهجري- العاشر الميلادي.
يعرض في هذا الفصل الخروج عن العربية في بعض الاستعمالات في شعر القرن العاشر، ثم ينتقل بعدها للموشح وظهوره في الأندلس، حيث يعده ثورة في الأسلوب على العروض القديم، وهو وإن كانت باكورته في الشرق في المزدوج والمخمسات، إلا أن الأخير لم يختلف كثيرا عن قالب الشعر القديم.
الفصل الحادي عشر: "وصف المقدسي" للعلاقات اللغوية في المحيط الإسلامي إبان القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي.
دارت قضايا هذا الفصل حول المقدسي وخريطته اللغوية للغة العربية في القرن الرابع، شاملا لهجاتها ومواطن الفصاحة فيها وغير ذلك مما يتصل باللهجات.
الفصل الثاني عشر : اللغة العربية في عهد السلجوقيين:
يستعرض في هذا الفصل تقلص حدود العربية وطغيان الفارسية إبان الحكم السلجوقي، غير أن هذا الضعف الذي طرأ على العربية لم يشكل خطرا للقضاء عليها، حيث استطاعت الحفاظ على كيانها بفضل جهود علمائها، التي لبت حاجة المتعلمين، فكتبوا الشروح ليوضحوا معاني الشعر والنثر، ليصل إلى الحريري ودوره في محاولة إحياء اللغة

وبعث الروح فيها من خلال كتابه "درة الغواص"، إلا أن محاولته تلك – بحسب "فك"- ظلت في إطار ضيق.

الفصل الثالث عشر: عود على بدء.

بين في فصله هذا آثار الغزو المغولي، كما تحدث عن النفوذ العثماني في الدول الإسلامية، لينتقل إلى الحديث عن النهضة في القرن التاسع عشر في البلاد العربية، وبدايتها من مصر، ويذكر في سياق اللهجات ما يقربها من بعضها من أنواع التقنية كالمسرح والمذياع والسينما، ويتوقع أن تكون لغة التحادث القاهرية المثل الأعلى للعالم العربي في نواحي النطق الصوتي.

ملحق: مادة ل ح ن ، ومشتقاتها :

عرض في هذا الملحق مادة (ل ، ح ، ن)، فبحث نشأتها ومدلولاتها، وانتقال اللفظ للدلالة على الخطأ اللغوي، لأن دلالتها كانت بمعنى الميل والتحول، دون الإشارة إلى التحول عن الصواب أو عن الحق.

رابعا: منهج الكتاب:

اتبع فك في دراسته المنهج التاريخي، معتمدا الوصف والتحليل، فتابع العربية منذ عصر الإسلام إلى عصره، محشدا مصادر تاريخية كبيرة، مكنته من رصد التغيرات الطارئة على العربية رصدا يحاول فيه أن يقدم أسباب التغير ووقته وحالته، كما استخدم منهج المقارنة أو (الموازنة) عندما قارن بين اللهجات والأساليب.

خامسا: عرض لبعض المآخذ في الكتاب.

1ــ جمود العربية وتوقفها:

يذهب "فك" إلى أن العربية قد وقف بها التطور والنمو عند العصر العباسي، فما إن دون العلماء اللغة نحوا وصرفا ومعجما و...إلخ، حتى ظهرت كالعقيدة التي لم تعرف التطور منذ ذلك العصر، يقول "بيد أن مقام العربية باعتبارها اللغة المعتمدة للعلم والأدب قد

بقي حتى هذا العصر الحديث ثابت الأركان، وطيد الدعائم، ولم يجرؤ إلا بعض دعاة الإصلاح الإسلاميين على توجيه نقدهم اليوم –دون جدوى- إلى عقيدة اللغة العربية الفصحى، هذه العقيدة التي جعلت من العربية الفصحى نموذجا مفروضا، ومثلا أعلى يقْتَفِيه كل كاتب عربي، جعلت من العسير بمكان أن نحصل على صورة واضحة للنمو والتطور الذي أخذته العربية، ككل لغة حية، في مدة تربو على ثلاثمئة وألف عام" ، ولعل السؤال الذي ينبغي أن يسأل، هو أي التطور ذاك الذي يبحث عنه فك؟

فمعلوم أن اللغات جميعا تشبه الظواهر الاجتماعية المختلفة، فهي "عرضة للتطور المطرد في مختلف عناصرها، .. وتطورها هذا لا يجري تبعا للأهواء والمصادفات، أو وفقا لإرادة الأفراد، وإنما تخضع في سيرها لقوانين جبرية ثابتة مطردة النتائج، واضحة المعالم محققة للآثار، ولا يد لأحد على وقف عملها، أو تغيير ما تؤدي إليه، فليس في قدرة الأفراد أن يوقفوا تطور لغة ما، أو يجعلوها تجمد على وضع خاص، أو يسيروا بها في سبيل غير السبيل التي رسمتا لها سنن التطور الطبيعي".

واللغة العربية قد مرت بتطورات عدة على المستويات المختلفة، لكنه لا يشير هنا إلا إلى تطور واحد، هو التطور الذي يجعل من اللغة متغيرة باستمرار، في كل مستوياتها وخصوصا النحوي منها، وهو ما يؤكده عندما يحدد وقف التطور من حين تدوين اللغة، غير أنه قد فاته التطور الهائل الذي مر على العربية وعلومها، أدبا ونقدا وبلاغة وغير ذلك، ، فالكتابة العربية مرت بتحورات وتغيرات كبيرة، فمنذ القرن الرابع الميلادي، والذي يمثل أول دليل مادي على وجود الكتابة العربية، والذي وجد على قبر امرئ القيس ابن عمرو في النمارة جنوب فلسطين ، وإلى يوم الناس هذا، شهدت الكتابة العربية العربية تطورا واضحا وملحوظا، فخطوط الخط العربي لا تكاد تحصى، فضلا عن الرسم القرآني الذي تميز بسمات خاصة، وجل تطور هذه الخطوط كان منذ القرن الأول وما

بعده، واستمر حتى بعد العصر العباسي، فالخط الأندلسي والمغاربي وغيرها من الخطوط، لم يقف بها الحال عند العصر العباسي.

هذا من حيث الكتابة، ولعله لا يخفى ما لحق بالجوانب الأخرى للغة من تطور، فعلم الصوتيات وعلم البلاغة وعلم الأدب والنقد، وغيرها، كلها علوم كانت وليدة تطور اللغة العربية، وكثير منها مازال يتطور إلى اليوم.

أما فيما يخص النحو تحديدا فإن اللغة لا تساءل في ثبات قواعدها، فضلا عن أن النحو والصرف من أكثر المعايير اللغوية ميلا إلى الثبوت.

يعزو د. جمال كولغلي* استمرار العربية وصمودها على مدى القرون إلى أن "العربية تنتمي إلى المجموعة الصغيرة نسبياً من اللغات التي زودت بنظام كتابي وبجهاز متكامل من الأدوات النحوية والمعجمية التي ضبطت قواعد استعمالها كما حمّلت بمسؤولية تدوين تراث ثقافي مكتوب يُعدّ من بين أوسع ما أنتج في تاريخ البشرية، وبفضل ذلك دخلت العربية في النادي الصغير الذي يضم ما يُعرف باللغات الثقافية الكبرى".

ولعل الختام يكون بالسؤال الذي يطرحه د. كولغلي، ليدلل على تطور العربية، حيث سأل عن ما إذا كان القارئ يشعر بتطور واختلاف عندما يقرأ كتابات الجاحظ وابن المقفع والتوحيدي ثم يقرأ كتابات نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم؟ فإذا شعر بالاختلاف والتغير فقد أدرك الجواب.

2ـ ضعف العربية في الشعر وعند الشعراء:

يرى فك أن الضعف قد تسرب إلى الشعر والشعراء منذ بداية القرن الثاني الهجري، فتفشّي اللحن جراء الفتوحات تسبب في ضعف العربية ووهنها، يقول "وبيت ابن نوفل إنما يدل على أنه منذ بداية القرن الثاني الهجري لم تعد سلامة التعبير من اللحن أمرا طبيعيا حتى عند ذوي المناصب الرفيعة" ، لكنه لا يلبث أن يعترف بأن إجادة العربية لم تقتصر على العرب، بل أتقنها غيرهم، وكانوا من أصحاب الفنون فيها، وكان طلابهم

يكتبون وينقلون عنهم لا لعلمهم فقط بل لإتقانهم العربية وبلاغتهم فيها ، وليست الإجادة في اللغة فقط، "بل حتى في أكثر النواحي اختصاصا أصيلا بالعرب وهو فن الشعر، كان على العرب أيضا أن يرضوا بمنافسة الأجانب" وهو هنا يتحدث عن القرن الأول الهجري، وعن زياد الأعجم الذي ذكر أنه توفي في 100ه، ثم يذكر أمثلة أخرى لشعراء فرس وزنج أجادوا وأبدعوا في قول الشعر إبان خلافة الأمويين.

ويسوق أمثلة في فصل آخر على قوة العربية وتقدمها على اللغات الأخرى، حتى عند أبناء تلك اللغات، فيضرب أمثلة من شعرائهم وكتابهم وكيف أتقنوا العربية وتفننوا فيها، بل حتى الشعوبيين منهم، كتبوا بالعربية وانقادوا لسلطانها .

فكيف يستقيم الأمر بين ضعفها ووهنها وقوة سلطانها حتى ينقاد لها الجميع؟

يعود "فك" مرة أخرى ليؤكد ضعف اللغة حتى في أسمى وأعلى فنونها وهو الشعر، ويدلل على ذلك بشواهد شعرية يستشهد من خلال سردها على وجود أخطاء لغوية أو استعمال للغة أو لهجة غير عربية، حتى تعجب شوقي ضيف من سوقه لهذه الأمثلة "دليلا على مخالفة الشعراء العباسيين لقواعد الكتابة" ، إذ جل ما نقله "فك" إما أن يكون لغة قوم ما، وإما أن يكون قد استخدم فيه القياس، يقول ضيف "ولو أنه أمعن النظر فيما سجله الموشح على شعراء الإسلام وما قبله، من مثل هذه الأحرف، لعرف أن العباسيين لم يخرجوا على قواعد الفصحى" ، ويؤكد أن كل ما فعلوه هو قياس أشعارهم على أشعار الأقدمين، فأجازوا لأنفسهم ما أجازه أسلافهم من بعض الضرورات.

وأما عن استعمالهم لبعض الألفاظ والصيغ غير العربية، فقد كان ذلك منهم تملحا وظرفا ، من مثل ما يسوقه أبو نواس في خمرياته تعابثا ومجانة، فلا يعقل أن شاعرا مجيدا له من القصائد الطوال الحسنة ما له، يمكن أن يضيق صدره عن لفظ عربي، وحتى إن كان هناك بعض الألفاظ غير العربية، فلا تتسع بحيث تكون ظاهرة عامة يوصف بها شعراء أو شعر ذلك العصر، يشهد بذلك قوتها حتى لدى غير العرب من الشعراء .

3ــ انتشار العربية بسبب تبعية العبيد الأعاجم للسادة العرب:

يشير إلى تعلم غير العرب العربية لكونهم تبع لسادتهم العرب، وغفل عن الدافع الديني، فكثير من الأعاجم تعلم اللغة ليتعبد بها، ليقرأ بها القرآن، وليصلي بها، وكذلك ليفهم معانيه ويتدبر آياته.

وقد ذكر ذلك "فك " نفسه عندما تساءل في الفصل التالي عن سبب احتفاظ العربية بمكانتها رغم صعود العناصر غير العربية إلى الحكم، فقرر أنه قد يكون من أهم الأسباب أن "لغة القرآن قد صارت في شعور كل مسلم أيا كانت لغته"، وبالتالي لا يصح أن يكون سبب تعلم العربية من الأعاجم محصورا في تبعيتهم لسادتهم.

4ــ عدم الاهتمام بعلم النحو:

يقرر أن الاشتغال بالعربية في غير العراق جد ضئيل، ويستدل بحركة علم النحو التي نشطت في العراق دون سواها، وكذلك بأمثلة على لحن طوائف من أمصار مختلفة أهمها المدينة، وأنهم رأوا في الانشغال بعلوم الدين ما يغني عن غيرها، وقد ساق في حديثه نقلا عن الصولي الذي يرويه مرفوعا إلى الأصمعي، يذكر فيه أخطاء نحوية فادحة وقعت من أئمة أعلام، كالإمام مالك وغيره –-.

أما فيما يخص الحديث عن الإمام مالك فلا يصح من وجوه، أولها كون الموضع الذي ذكر فيه الخطأ قبيح لا يصدر من صبي في هذا العصر، فضلا عن الإمام مالك "رضي الله عنه"، وثانيها براعة الإمام مالك في الفقه وأصوله، وهي براعة لا تتم دون البراعة في اللغة نحوا وصرفا ومعجما ودلالة وبلاغة، وثالثها رسائل الإمام مالك الفقهية، فكلها تبين عن علم ودراية وإتقان وبلاغة.

وأما كون الاشتغال بالعربية ضئيل في المدينة، أو في الحجاز، وهو ما أشار إليه "فك " في حديثه، فلعل السبب في ذلك عدم اختلاطهما بالأعاجم بالصورة التي اختلط بها غيرهم بهم، فلم تكن لأهل الحجاز حاجة جد كبيرة لتعلم النحو وتعليمه لقوة السليقة فيهم.

5ــ تعميم فساد اللغة الفصحى:

يعد اللغة قد ساءت كثيرا في القرن الثالث الهجري، ويعتمد في ذلك على بعض لحن وجد عند بعض الشعراء في بعض كلمات عندهم، يقول بعد سوق الأمثلة "وكان حال الدارجة أسوأ من ذلك كثيرا" ، ويقصد بذلك أن اللحن قد تفشى في غير لغة الأدب تفشيا أكبر منه في الأدب، وهو صحيح نسبيا، غير أنه قد فاته ما حملته لغة الأدب في القرن الثالث من روائع في الشعر والنثر، وكيف لا والعصر عصر الازدهار والتطور؟

إن الروائع من القصائد المطولة والرسائل المدبجة، لخير دليل على قوة اللغة في ذلك العصر، بل ويؤكد ذلك ما ذكره في الصفحة التالية من أنه حتى فيما يخص اللغة الدارجة، كان هناك من يحافظ على لغته الفصيحة لسانا وقلما، إلا أنه يسوق ذلك للدلالة على البعض فقط، وأما روح العصر فقد كستها اللغة المولدة بحسب تعبيره "فالتربية النحوية والإلمام باللغة الفصحى لم يكونا بعد إذ ذاك حتى في الأوساط الراقية للمجتمع الإسلامي أمرا مفهوما بالبداهة، فقد صار الكلام على طريقة البدو أي بالمحافظة على جميع ظواهر الإعراب، يعتد نسجا على الطريق القديم الذي لا يساير روح العصر" ، ومع هذا النقل تبرز قضية أخرى هي قضية "العربية المولدة"، وقد سيقت هذه اللفظة "المولد" في كتب الأدب للدلالة على الابتعاد عن الحوشي والغريب من ألفاظ البادية، مع المحافظة على مادة اللغة ومقوماتها النحوية والتصريفية، ومحاولة المواءمة بالتجديد في الأفكار والمعاني والألفاظ، بما يلائم روح العصر ، إلا أن فك يسوقها في إطار الدلالة على اللغة التي انتقلت بعد الفتوحات الإسلامية خارج حدودها، ويؤكد أن الفارق بينها وبين الفصيح هو عدم الالتزام بالإعراب، وهو سياق يختص به وحده –فيما أعلم– ، ولعل لفظ "مولد" لم تكن في بداية الفتوحات دلت على ذلك الجيل الجديد الذي خرج من شبه الجزيرة العربية.

وبمتابعة خصائص العربية المولدة عند فك، يتضح أنها لا تنطبق إلا على اللهجات العامية ، وبالعودة إلى اللغة منذ ما قبل الإسلام نلحظ أن اللغة الفصيحة قد تطورت من جوانب تمثلت في الثروة اللفظية والتغير الدلالي والتجديد الأسلوبي، أما اللغة العامية فقد تغيرت بتخليها عن الإعراب، وبالتغير الذي طرأ على أصواتها، وبالتحريف الذي صاحب أبنيتها، وإذا كان فك يؤكد أن التحرر من الإعراب قرينة أكيدة على العربية المولدة، وليس منحصرا فيها، فإن العربية المولدة "أمر لا وجود له، لأن الموجود حقا هو العربية الفصحى التي اعترتها مظاهر التغير التي أشرنا إليها سابقا".

خلاصة:

- يعد كتاب العربية من أغنى الدراسات التي حاولت أن تتابع الظاهرة اللغوية في اللغة العربية.
- استفاد الكتاب من مؤلفات مختلفة في التاريخ، وخصوصا تاريخ الجزيرة العربية وجغرافيتها القبائلية.
- حاول المؤلف في كثير من الأحيان أن يكون واصفا، لكن الوصف بحد ذاته قد يحمل معان ضمنية يستفاد منها في الأحكام.
- لم يفرق بين العربية المولدة واللهجات العامية.
- أثر عدم تفريقه بين اللهجات العامية والعربية المولدة في تركيزه في دراسته على اللهجات، وكأنها الصورة الوحيدة للتطور.
- يسوق في أحيان مختلفة شواهد قليلة أو متواضعة لا يطمأن لها في استخلاص النتائج.
- تتسم دراسته بالموضوعية فلا يرى عنده العدائية المسبقة للعربية والإسلام.

هوامش البحث:

1 ينظر: شتيح بن يوسف، ظاهرة التطور اللغوي عند يوهان فك من خلال كتابه العربية، مذكرة ماجستير بكلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة زيان عاشور، الجزائر، 2009م، ص118، نقلا عن http://www.catalogus-professorum-halensis.de/fueckjohann.html. 29/06/2008

1ينظر: يوهان فك، العربية: دراسات في اللغة واللهجات والأساليب، تر: رمضان عبدالتواب، مكتبة الخانجي، 1980، مصر، ص3-4.

1 ينظر: نفسه.

1 يوهان فك، العربية، تر: عبدالحليم النجار، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2014م، ص2.

1 علي عبدالواحد وافي، اللغة والمجتمع، دار النهضة، مصر، ض91.

1 ينظر: حسين مؤنس، تاريخ قريش، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط:1، 1998م.

1 ينظر: شتيح بن يوسف، ظاهرة التطور اللغوي عند يوهان فك من خلال كتابه العربية، مذكرة ماجستير بكلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة زيان عاشور، الجزائر، 2009م، ص28.

* هو أستاذ أخصائي في العربية وعلومها، وهو مدير مركز الأبحاث العلمية ب المدرسة العليا لتكوين المعلمين بليون، كتاباته غزيرة في مختلف علوم العربية.

1 جمال كولغلي، حول تاريخ اللغة العربية، مقابلة أجرتها معه أ.سلام دياب، المدرسة العليا لتكوين المعلمين بليون، 14-11-2007م.

1 ينظر: نفسه.

1 يوهان فك، تر: عبدالحليم النجار، ص31.

1 نفسه.

1 يوهان فك، تر: عبدالحليم النجار، ص33.

1 ينظر: نفسه، ص55.

1 ينظر: نفسه، ص50.

1 شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي: العصر العباسي الأول، ط:22، دار المعارف.ص142.

1 نفسه.

1 ينظر: نفسه، ص142.

1 ينظر: نفسه، ص142.

1 ينظر: شوقي ضيف، ص142، ما بعدها.

1 ينظر: يوهان فك، تر: عبدالحليم النجار، ص10.

1 نفسه، ص50.

1 ينظر: نفسه، ص68.

1 ينظر: نفسه، ص69 وما بعدها.

1 يوهان فك، ص138.

1 ينظر: نفسه، ص139.

1 نفسه، ص140.

1 ينظر: شوقي ضيف، ص146.

1 يؤكد د. أحمد محمد قدور أن هذا المفهوم يخالف ما أجمع عليه علماء العربية القدامى، اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي، دار الفكر المعاصر، دمشق، 2001م، ص228.

1 ينظر: نفسه، ص231.

1 ينظر: نفسه 230-232.

1نفسه، ص223